

الإشراق كالشمس جمانة بنت ثروت كتيبي



في مجلسٍ من مجالس شرح السنة النبوية، كان الحديث عن روايات أحاديث الخصائص التي أُعطيها النبي صلى الله عليه وسلم، حتى وقفت الدكتورة عند خصيصة الحمد التي لا ينبغي أن نغفل عنها؛ إذ نبينا صلى الله عليه وسلم صاحب لواء الحمد يوم القيامة.

فينبغي أن يكون ديدننا الدائم هو حمد الله في السراء والضراء، حمداً صادقاً ولي قلبونا؛ يليق بجلال الله وعظمته. ثم قالت حفظها الله ما أخذ بالألباب: "لا يؤهملك الشيطان أنك حين تفقد شيئاً؛ فقدت كل شيء!" فما أصدقها من عبارة؟ وما أشد دُحول العقل عنها مع كونها شديدة الوضوح!

لا يؤهملك الشيطان أنك حين تفقد شيئاً؛ فقدت كل شيء! ولا أنك حين فقدت فلاناً من الناس بموت أو افتراق سبيل؛ فقدت به كل شيء! كل الناس يفقد شيئاً، وكل الناس مُودَعٌ ميتاً. تختلف العلاقات والصلات بلا شك، ولكن لكل شخصٍ عزيزٌ وشيءٌ تميمٌ، والحياة يوم فاقد ويوم مفقود. لا يؤهملك؛ فيُفقدك الحزن.

يختلف فقدٌ عن فقد، ولا أقول إن الفقد سواء! فليس من فقد والديه أو أحدهما كمن مُتّع بهما طوال حياته! وليس من ذاق موت الابن والذرية قبل موته كمن لم يذق! ليس من خسر أخاه العزيز أو صديقه القريب، كمن كثر إخوانه وأصدقائه بلا تمييز بينهم في القرب والصحة والألفة! لكن القصد أن تُربّي أنفسنا أن الفقد حق، وغير مستبعد.. حتى إذا حانت لحظة ابتلاء المرء به؛ كان حزنه فطرياً مستقيماً، ولا يجد الشيطان إليه به سبيلاً.

وإننا نتعلم، ليس فقط من حياته صلى الله عليه وسلم، بل نتعلم حتى من موته! ومن جُملة ما نتعلمه: أنه لا فقد أعظم من فقد الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي كانوا يرونه بين أظهرهم صباح مساء، وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وعلمهم ورباهم وزكاهم؛ حتى كأنهم خلُقوا جديداً؛ فكيف تتوقع حزنهم؟

أبو بكر -رضي الله عنه- بعد أن تأكد من موته صلى الله عليه وسلم؛ خرج إلى الناس فخطب فيهم، وتلا عليهم: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} [الزمر: 30] {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: 144] فنشج الناس بيبكون "بكاء المفجوع الذي أدرك الحقيقة، وأفاق مما هو فيه من صدمة. كان ابن عباس -رضي الله عنه- هناك، وقد وصف حال الصحابة بعد خطبة أبي بكر" فقال: (والله لأكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها من الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها) [البخاري: 4187].

واختصر أنس بن مالك -رضي الله عنه- حال ذلك اليوم بقوله: (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء) [الترمذي: 3618].

لقد حزنوا على فقدته أشد ما يكون الحزن، ففقدهم فقدٌ لسيد ولد آدم لا كفقد عموم بنيهِ! "أهالوا التراب والدموع عليه... بكوا ذلك النبي الذي كان أرحم الناس بهم، وأحب الناس إليهم.. بكوا محمداً صلى الله عليه وسلم... الذي فارق الحياة... لكنه بقي سنةً ومناهجاً... نهض الصحابة بعد دفنه ولم يعكفوا عند قبره... لقد علمهم عليه الصلاة والسلام... كيف يُشرقون كالشمس في عروق المستقبل والأجيال.. نهضوا من عند قبره فحملوا رسالته إلى العالم لينقذوه بها كما أنقذهم هو قبل ذلك بها" [السيرة النبوية للصوياني (4/ 269)].

فظل الصحابة هم الصحابة، ففتتوا الدنيا وساروا في الأرض، وعلموا ودعوا واجتهدوا، ونشروا الرسالة وأدوا الأمانة، ولم يوقفهم حزنٌ على فقد.

فلا تظنن بعد هذا أن فقدك أعظم من فقدهم، ولا تحسبن أن فقد ما يُفقد من الأشياء والمناصب والجمادات أكبر شأنًا من فقد الأنفس! فها هي ذي الأنفس تُفقد؛ ومع ذلك يتصبر المرء ويُرَبِّي نفسه على حسن الفعل، فلم يوهن المرء ويبلغ في الحزن والأسى على فقد ما دون النفس؟!

إن من الناس من يبقى تحت ريق الذكرى بقاءً موقفاً للحياة، موقفاً في الألم، وموقفاً للبدن! فهؤلاء ليس إليهم سبيل إلا أن تُذكرهم نهج الإيمان، وأن تتلو عليهم الآيات المبينة لحقيقة الدنيا، وفرق ما بينهما وبين دار الحيوان -أي: دار الحياة الكاملة بنص القرآن-.

ولا يخلو فقد ولا فراق من عبرة ودرس؛ فأبلغهما هو تعلم المرء العنية بالله، ووعيه بنقص هذه الدار وما جُبلت عليه من كدر. إضافةً لما فيهما من اختبارٍ لحمل لواء الحمد في الضراء كما اعتاد حمله في السراء، واختباراً لتوقف السعي أو مواصلته.

فاحمد الله دومًا، ولا تُفكك غير الفقد وعظاته، ولا تحزن حزنًا يُفقدك عن العمل الصالح، وتعلم كيف تُشرق كالشمس بعد كل ليلٍ دامس.

جمانة بنت ثروت كتيبي